مذكرة

عن القصر المكتشف في شارع معاوية

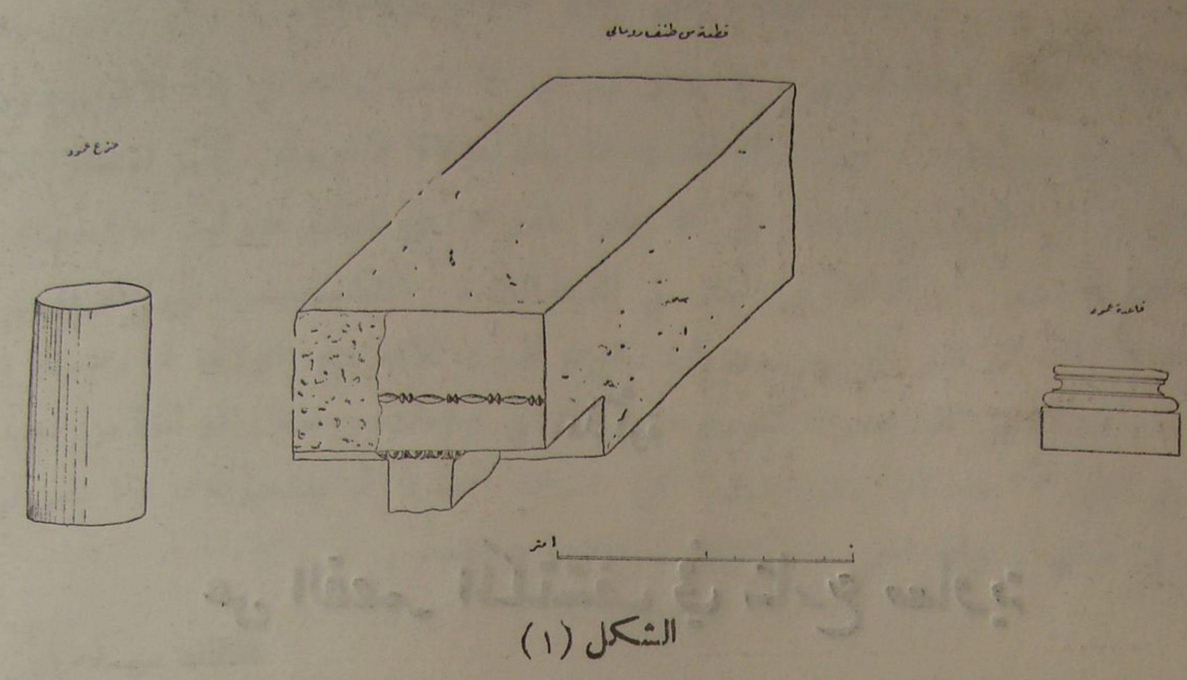
بدمشق (١٩٥٩)

بقلم

عدنان البني　　　　نسيب صليبي

تمهيد

في الجهة الجنوبية من شارع معاوية ، وعلى مقربة من البيمارستان النوري (مدرسة التجارة) والسور القديم لمعبد « جوبيتر الدمشقي » (راجع المخطط ١) كانت تجري حفائر تستهدف إرساء أساسات بناء نقابة المحامين بدمشق (اللوحة الأولى ١) . وبعد أن بلغ عمق الحفر حوالي المترين والنصف ظهرت معالم جدران ضخمة مشيدة بحجارة « غشيمة » كبيرة الحجم (اللوحة الأولى ٢) (المخطط ٢) وبعض العناصر العمرانية المتنوعة التي كانت جزءاً من منشآت أقدم تعود للعهد الروماني - لعلها ذات صلة بأسوار معبد جوبيتر أو بعض منشآته (الشكل ١) .



الشكل (١)

طلبت المديرية العامة للآثار والمتاحف من أحدنا الملحق الفني نسيب صليبي بإجراء التنقيب الأثري الفني في هذه البقعة نظراً لأهميتها القصوى سواء فيما يتعلق بتاريخ مدينة دمشق أو طبوغرافيتها الأثرية ، لأن الفرصة قلما تسنح للقيام بمثل هذه التنقيبات داخل المدينة القديمة (١) لأنها مكتظة بالأسواق ودور السكن التي قد تطلعنا على الماضي القريب نسبياً ولكنها تحول تقريباً دون معرفة شيء كثير عن الماضي البعيد .

أعمال التنقيب

استغرقت أعمال التنقيب قرابة ثلاثة أسابيع ، بين حزيران وتموز من عام ١٩٥٩ واشترك فيها حوالي عشرة عمال بالاضافة لبعض فنيي المعمل الفني في المديرية العامة للآثار والمتاحف وعلى رأسهم المرمم الممتاز السيد حسن زرقش الذي أظهر مهارة فائقة في استخلاص الفسيفساء والبلاط الرخامي كما تولى المرحوم السيد بشير زاهد مراقبة الورشة .

---

(١) الواقع أننا مدينون للصدف السعيدة في معرفة بعض معالم المدينة القديمة ، أو في العثور على بعض اللقى الهامة ، ومن ذلك مثلاً العثور عفوياً على أجزاء فسيفساء بعض الجدران قريباً من هذه المنطقة أو اكتشاف الكنز الأموي في منطقة الحريقة أيضاً خلال أعمال حفر الأساسات ، راجع : أبو الفرج العش ، الكنز الذهبي الأموي ، الحوليات ١٩٥٤ — ١٩٥٥ ، ص ٢١ — ٢٨ .



١ ـ أعمال التنقيب



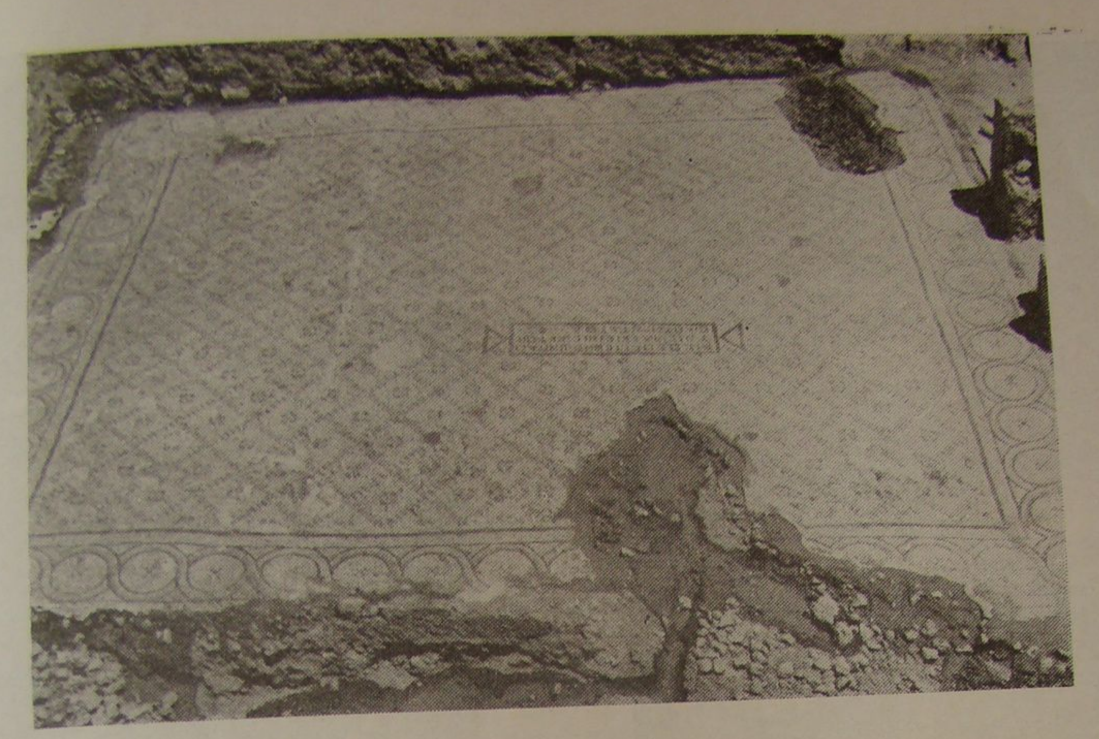
٢ ـ منظر للجدران والأساسات



٣ ـ القاعة والبهو الموزع



٤ ـ المداميك الباقية من جدران القاعة



١ – منظر عام لفسيفساء القاعة

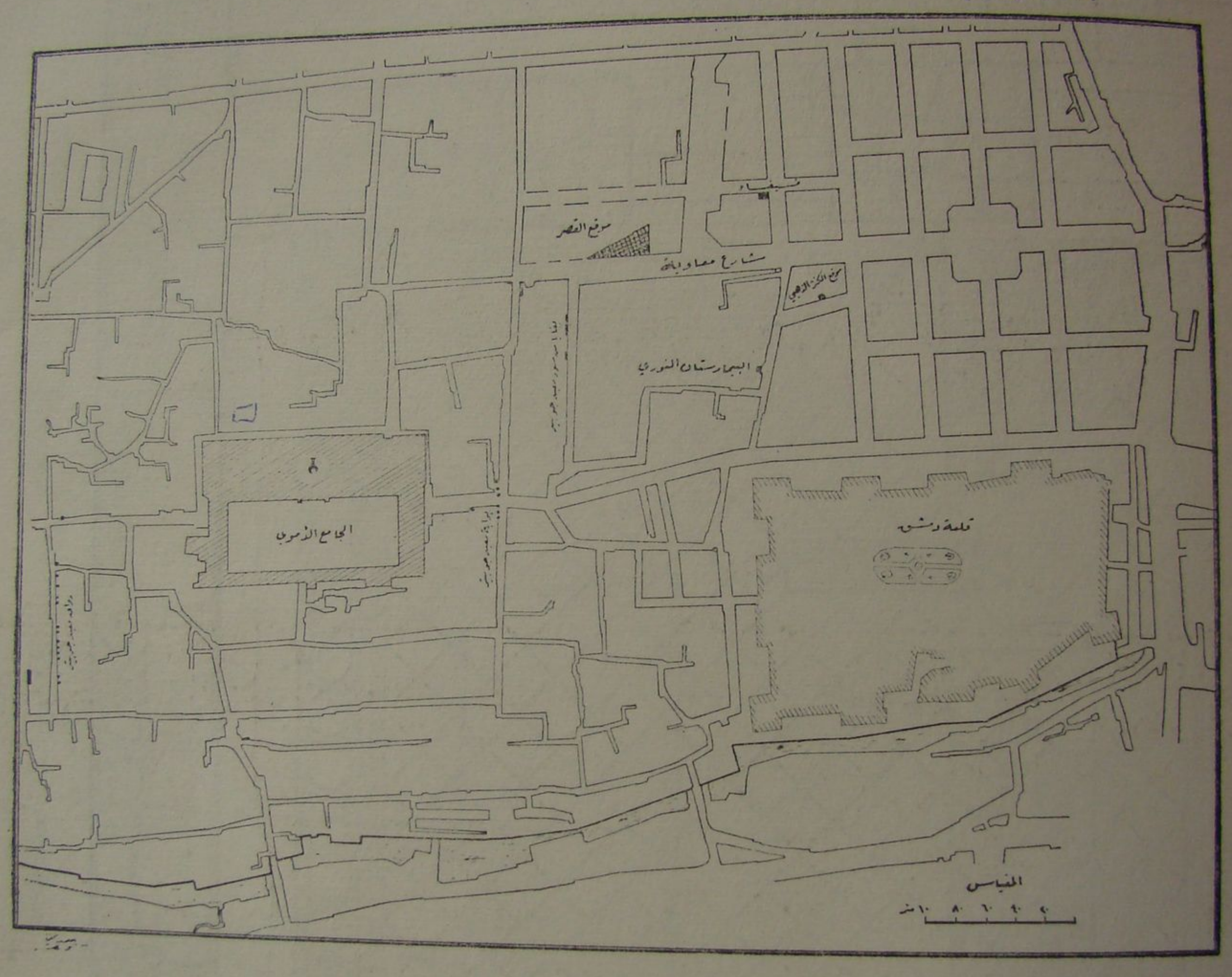


٢ – تفاصيل من فسيفساء القاعة



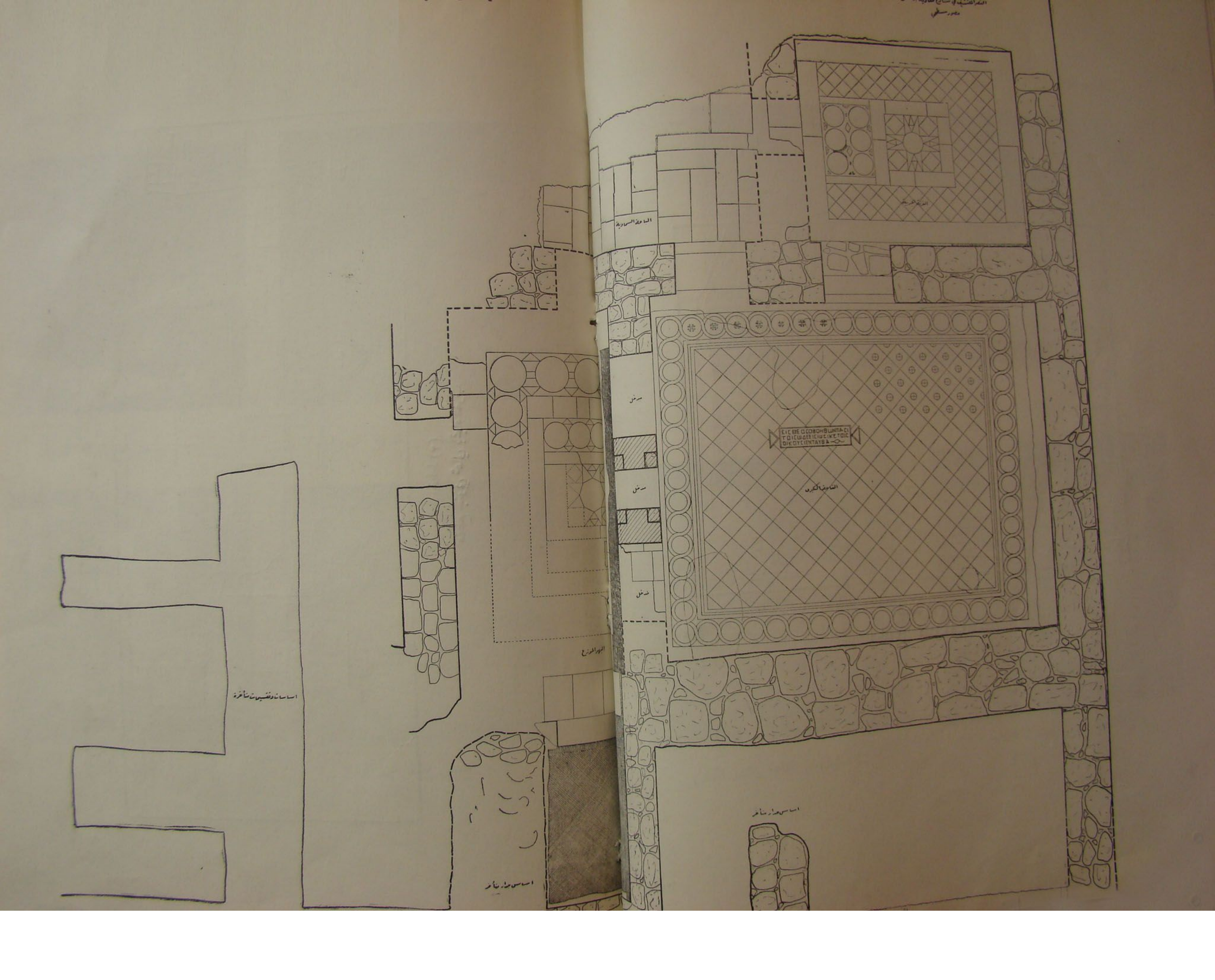
٣ – العتبة بين القاعة والبهو الموزع

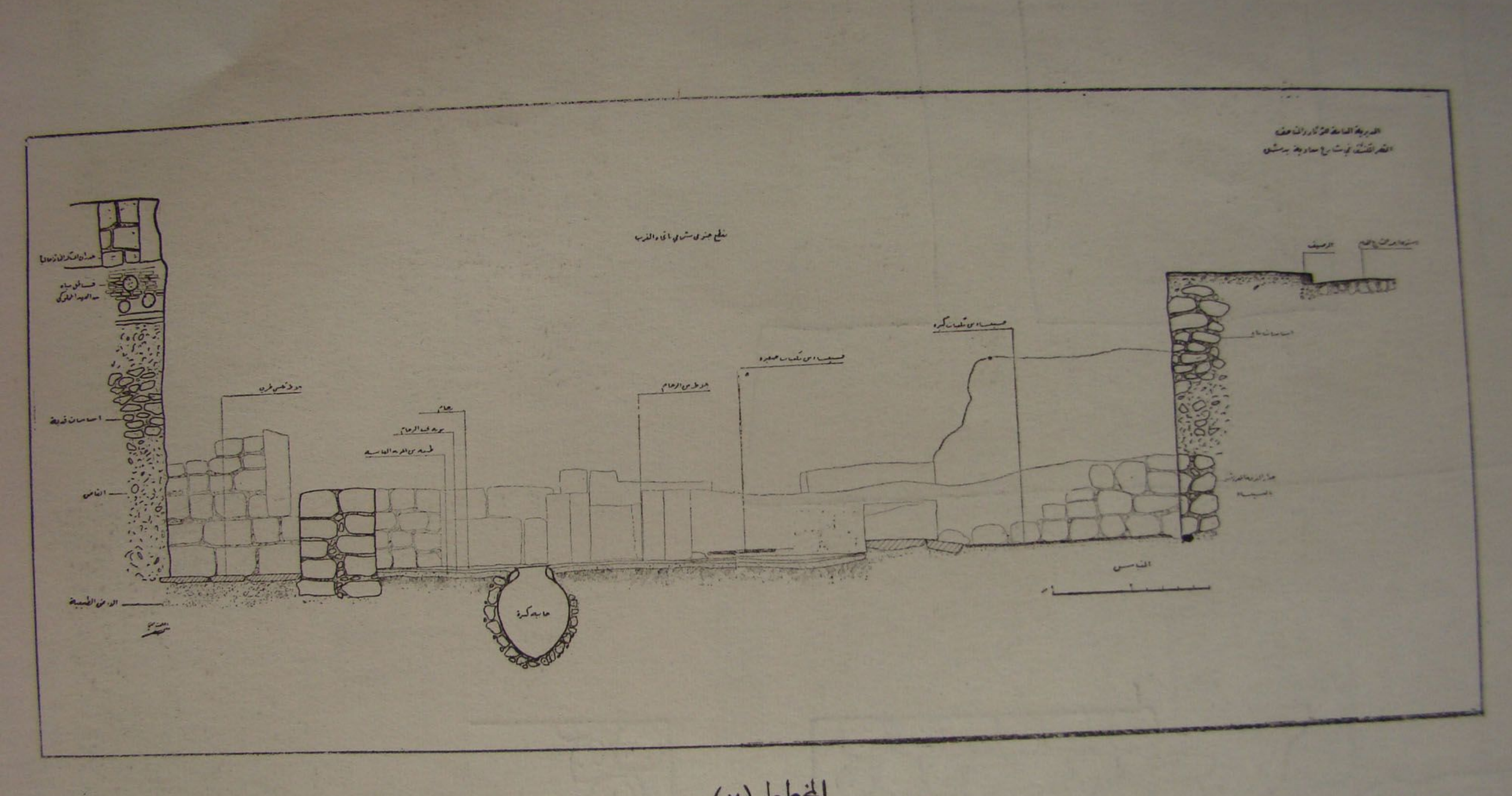
المديرية العامة للآثار والمتاحف
القسم الشمالي الغربي
مدينة دمشق القديمة



المخطط (١)

مصور المنطقة التي اكتشف فيها القصر


الساحة السماوية
القاعة الكبرى
مدخل
مدخل
مدخل
اساسات وتقسيمات متأخرة
اساس جدار متأخر
اساس جدار متأخر



المخطط (٢)

مقطع جنوبي شمالي باتجاه الغرب

اللوحة الثالثة



١ ـ تفاصيل من الغرفة الجنوبية



٢ ـ منظر عام للغرفة الجنوبية



٣ ـ تفاصيل بلاط البهو الموزع



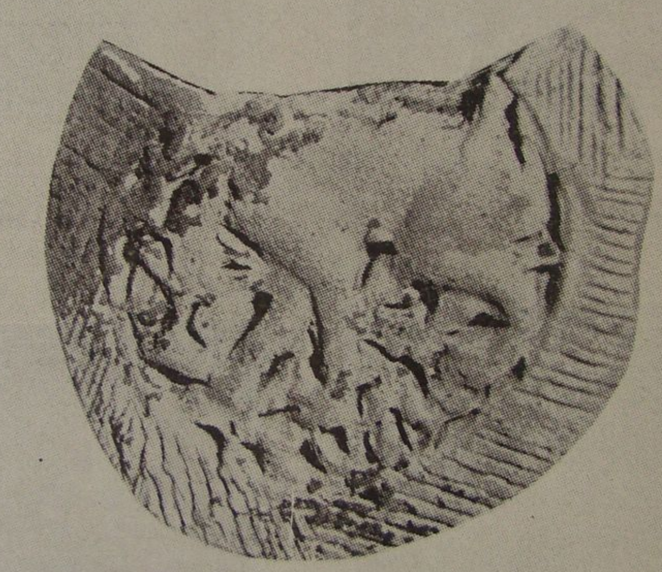
٤ ـ البهو الموزع



الشكل ١



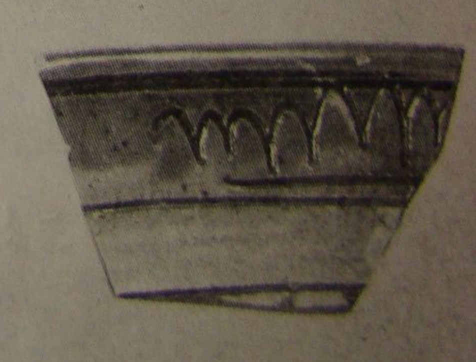
قارورة بيزنطية صغيرة



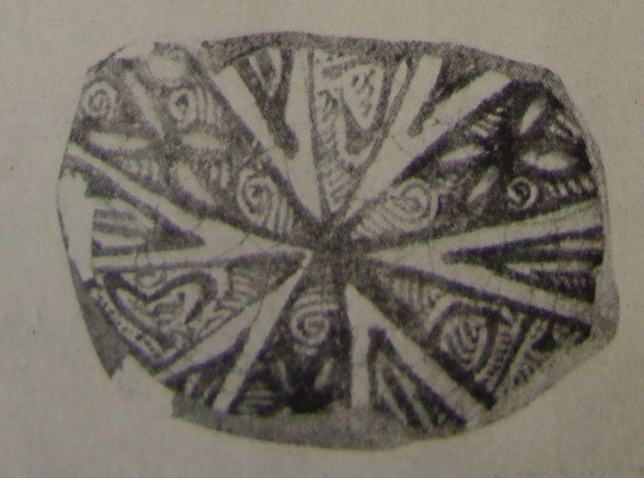
الشكل ٢



الشكل ٣



الشكل ٤



الشكل ٥



الشكل ٦

ومع تقدم أعمال التنقيب أخذت الجدران المكتشفة تدل على معالم جناح من قصر كبير مشيد على الأرض الحرّة في هذا الحي الذي كان يتوسط المدينة القديمة . ويرد هذا الجناح غالباً ، من حيث أسلوب بنائه وتفاصيله المعمارية وبعض اللقى الأثرية التي التقطت فيه ، إلى أواخر القرن الخامس وفاتحة القرن السادس الميلادي ، أي حوالي عهد الامبراطور البيزنطي جوستين غالباً ، وقد ظل في العهد الأموي مستخدماً وقتاً غير قليل ثم أصابه التعديل والإضافة في العهود العربية الإسلامية اللاحقة (١) .

تبلغ مساحة الجناح المكتشف مائتين وخمسة وسبعين متراً مربعاً . ويتألف ما ظهر منه من قاعة كبيرة ، وجزء من قاعة ثانية ، وبهو موزع ، وغرفة ، وجانب من باحة سماوية (راجع المخطط ٣) .

القاعة :

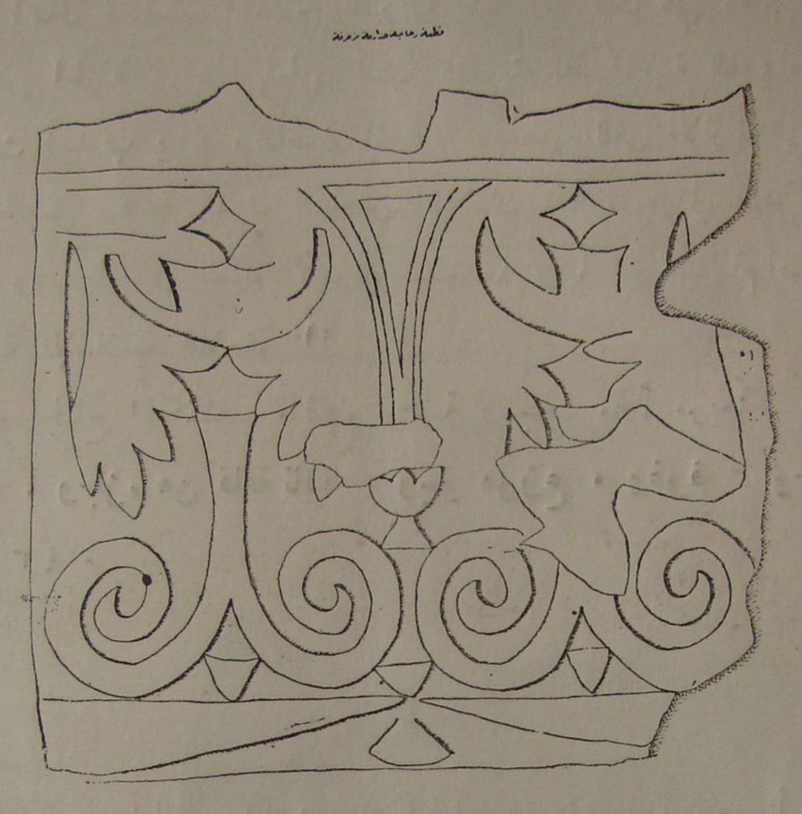
تقع هذه القاعة في الجانب الغربي من الجناح المكتشف ، وهي أكبر غرف هذا الجناح (٧ × ٦٥ و ٥ م) لها في جدارها الشرقي ثلاثة مداخل تصلها بالبهو الموزع . ولتلك المداخل عتبات مرتفعة قليلاً عن أرض القاعة وعثر أمام المدخل على قطع رخامية مزخرفة (الشكل ٢) . كما أن للقاعة مدخلين في جدارها الجنوبي ، الأول يؤدي إلى الغرفة المجاورة والثاني يصلها بالباحة السماوية .

ومن المرجح أن الأقسام العلوية من المداخل الشرقية كانت مجهزة بنوافذ جصيّة مزجّجة تعلو الأبواب ، وذلك بدليل وجود كسر من الزجاج الملوّن منثورة على مساحة كبيرة قرب تلك المداخل .

والجدران المحيطة بالقاعة مشيدة بالحجارة الغشيمة المسوّاة وكانت مكسوة بطبقة من الملاط . وقد بقي منها مدما كان أو ثلاثة (اللوحة الأولى الشكلان ٣ و ٤) وتبلغ ثخانتها : الجدار الشمالي ١٤٦ سم ، الغربي ١٠٤ سم والشرقي ٩٠ سم .

---

(١) راجع الفقرة الأخيرة من هذا البحث .



الشكل (٢)

رصفت أرض القاعة بحصيرة من الفسيفساء المتوسطة الدقة فيها بعض التشويه من عوامل الزمن . ولونها الأساسي زبدي وتجتازها خطوط مسننة حمراء مائلة ومتعامدة فيما بينها تقسم الفسيفساء إلى عدد كبير من المربعات التي تستند على رؤوسها (المخطط ٣) وتتوسط كل مربع زهرة دائرية حمراء فيها صليب (١) . والإطار الذي يكتنف حصيرة الفسيفساء مكون من خطين أسودين بينهما دوائر سوداء متداخلة كالسلسلة أو في وسط كل دائرة منها زهرة حمراء بأربعة تويجات (اللوحة الثانية الشكلان ١ ، ٢) .

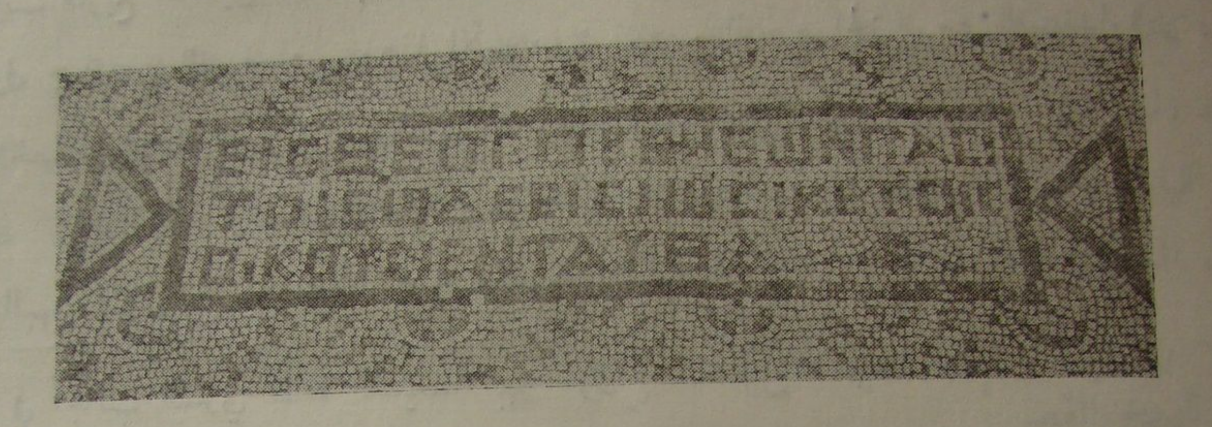
وفي وسط الفسيفساء تقريباً كتابة يونانية باللون الأحمر ، مؤلفة من ثلاثة سطور ضمن

---

(١) حصائر الفسيفساء المقسمة إلى مربعات شطرنجية تستند على رؤوسها أسلوب تزييني معروف في الفسيفساء . وكانت هذه المربعات ، خاصة في العهد البيزنطي ، تتضمن صور حيوانات أو فواكه أو رموز مسيحية كالخاتم وغيرها . أما هذا الأسلوب المبسط المتقشف الذي يتوسط المربع فيه زهرة صغيرة أو عنصر تزييني مكرر في جميع المربعات فنعتقد انه متأخر نسبياً فقد وجدت نماذج منه تعود للقرن السادس الميلادي في دير بيسان راجع :
G. M. FITZGERALD , A Sixth Century Monastry at Beth - Shan (Schythopolis) , 1939 , PL . X III & XVIII.

إطار بعروتين لونه أسود . طول الكتابة ٥ ، ١٥٥ سم عرضها ٣٠ سم ارتفاع الحروف وسطياً ٧ سم (راجع المخطط ٣ ، والشكل ٣ ، واللوحة الثانية ، الشكل ٢) .

وقد تلطف الأستاذ جان بول ري - كوكيه من معهد الكتابات اليونانية في ليون بدراسة هذه الكتابة مشكوراً وترجمها لنا .



Εἷς Θεός · ὁ βοηθῶν πᾶσι
τοῖς ὧδε εἰσίωσι κὲ τοῖς
οἰκοῦσι ἐνταῦθα .

الشكل (٣)

التعريب : « واحد هو الإله الذي يجير كل الداخلين إلى هذا المكان وكل الذين يقيمون فيه »[١] .

وهذه الصيغة مسيحية مألوفة جداً في العهد البيزنطي كما أن الكتابة تؤيد من حيث شكلها التاريخ الذي رجحناه لبناء القصر .

الغرفة الجنوبية : (المخطط ٣ واللوحة الثالثة الشكلان ١ و ٢) .

تجاور القاعة التي تقدم وصفها ، من الجهة الجنوبية ، غرفة مستطيلة تتصل بتلك القاعة من جهة الشمال وبالباحة من جهة الشرق ، وتشترك مع القاعة بالجدارين الغربي والجنوبي .

(١) في السطر الثاني من الكتابة اليونانية ، على مايقول الاستاذ ري كوكيه ، أخطاء كتابية تمثل لفظاً شائعاً .

وكانت جدرانها مصفحة في قسمها السفلي بالرخام الوردي المموج ، بالملاط . وقد رصفت أرض الغرفة بالرخام الأبيض والأسود بشكل شطرنجي . وفي وسطها مربع تتوسطه دائرة من حجر الغرانيت الأسود ، تتوزع منها مثلثات رخامية خضراء وحمراء مصلبة على شكل الأشعة . وبجانب المربع مستطيل محدد بمستطيلين من الحجر الأصفر ومزين بدوائر من حجر وردي محاطة بحقول جميلة من الفسيفساء . وهذا الأسلوب في تناوب الرخام المجزع مع الفسيفساء نادر ولعله من خصائص ذلك العصر .

البهو الموزّع : (المخطط ٣ ، واللوحة الثالثة الشكلان ٣ و٤) .

في الجانب الشرقي لقاعة الفسيفساء بهو موزّع مستطيل ، عرضه ٥ م ، طول ما كشف منه حوالي عشرة أمتار . وهذا البهو كما ذكرنا مفتوح على القاعة . وهو من جهة ثانية متصل بالباحة السماوية . وكان بالأصل مفتوحاً على بعض الغرف الشرقية التي لا نعرف عنها شيئاً في الوضع الراهن . والبهو مقسوم من حيث بلاطه إلى حقلين ، الحقل الأول رصفت أرضه بالرخام الملون المجزّع ، والحقول الرئيسية فيه كانت تتألف من دوائر رخامية وردية ومثلثات وأطر من الرخام الأسود . والعنصر التزييني المركزي فيه عبـارة عن شكل هندسي مثمن مكون من رخام أخضر مموج حوله مثلثات بيضـاء تبدو كالنجم المشع . وقد نزلت في الفراغات بين الأشعة مثلثات من الرخام الأحمر والأسود والأبيض . وأمام المداخل التي تصل البهو بالقاعة حقل مستطيل من الفسيفساء تتخلله عناصر تزيينية ملونة . والحقل الثاني مرصوف بفسيفساء ذات حجم كبير ولون زبدي وهي خالية من التزيينات مما يجعل عادة في الممرات والباحات ، ومما يؤكد طبيعة هذا البهو الذي كان صلة الوصل بين أقسام الجناح . والجدار الشمالي للبهو لم يكتشف لوقوعه تحت الشارع . أما الجدار الظـاهر في المخطط ٢ فهو من الجدران المحدثة فيما بعد .

هذا وفي احدى زوايا هذا البهو عثر على خابية فارغة ينوف ارتفاعها عن المتر كانت مثبتة

في الأرض ومغطاة ببلاطة . ومثل هذه الخوابي الهائلة المدفونة في الأرض كانت معدّة لخزن بعض المؤن أو الأعتدة(١) (راجع المخطط ٢) .

الباحة السماوية (المخطط ٣)

كانت باحة القصر ، أو على الأقل باحة هذا الجناح من القصر ، قائمة في الجانب الجنوبي وقد دلت عليها بعض البلاطات الكبيرة من الحجر الكلسي الطري . ولا يعطينا القسم المنقّب من الباحة فكرة صحيحة عن مساحتها أو العناصر المشيدة فيها نظراً لأن معظمها مغيَّب تحت المساكن القائمة حالياً .

تاريخ القصر

ذكرنا آنفاً أن بناء القصر يعود لأواخر القرن الخامس ومطلع القرن السادس الميلادي وذلك تؤكده الكتابة المكتشفة والمقارنة مع الفسيفساء المكتشفة في بيسان (راجع ما قبله الصفحة ١٦٨ ، المتن والهامش) كما تؤيده النقود التي عثر عليها على مستوى أرض الغرفة وأكثرها بيزنطي ويمكن ترتيبها كما يلي :

١ — نقد من عهد أنسطاس أو جوستين الأول (أو أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الميلادي) .

٢ — نقد من عهد جوستين الثاني (القرن السادس الميلادي) .

٣ — نقد من النموذج العربي – البيزنطي (أواخر السابع) .

---

(١) عقد العمال العاملون في التنقيب والمتفرجون وعابرو السبيل آمالاً جساماً على هذه الخابية ، خاصة لسبق العثور على الكنز الأموي قريباً من هذا المكان ، والواقع أن وجود الجرار المملوءة بالنقود ، داخل الأرض أو في الجدران ، شيء محتمل على ندرته ، ولكن الجرار في مثل هذه الحال تكون غالباً صغيرة الحجم ، وهناك من هذا القبيل وفي المنطقة ذاتها ، الكنز الأموي المكتشف على مقربة من هذا المكان (الاستاذ العش – المرجع المذكور في الصفحة ١٦٦) وكنزان فضيان غير منشورين .

ويدعم هذا التاريخ المقترح الفخار البيزنطي المتنس وبعض التفاصيل المعمارية كإعادة استعمال العناصر المعمارية من مباني العهد الروماني خاصة معبد « جوبيتر » الذي كان قد حوّل منذ زمن إلى « بازيليك » وتقادمت أسواره وبعض عناصره وتهدمت .

وفي هذه الفترة كانت مدينة دمشق ، كما كانت دوماً ، من أمهات المدن ، مزدهرة وغنية وجميلة العمارة . وكانت المنطقة المحيطة ببازيليك القديس يوحنا المعمدان حياً لسراة الدمشقيين . وظلت هذه الصفة طوال العهد الأموي (أواخر القرن السابع الميلادي والقرن الثامن) وفي هذه الناحية من المدينة كانت تقوم بعض قصور الأمويين الذائعة الصيت ، كما أن الراجح حتى الآن ، أن قصر الخضراء الذي ابتناه معاوية كان على مقربة من المكان ، قرب قصر العظم الحالي أو في مكانه .

وقد استمر السكن في القصر المكتشف حتى القرن التاسع أو ما بعده وإن جرت عليه بعض التعديلات ، وذلك بدليل العثور على كسرات زبدية زجاج سوري أو مصري شفافة ذات لون أحمر نبيذي مزين بخطوط بيضاء غارقة في جسم الزجاج ، وهناك كسرات قريبة الشبه ومن اللون نفسه ولكنها تعود لآنية مصنوعة بطريقة النفخ غالباً وهي مضلعة طولياً وغير مسحّبة (اللوحة الرابعة ، الشكل ١) وبعض هذه الكسرات ترد غالباً للقرن التاسع الميلادي وبعضها أحدث عهداً (١) .

وهناك أخيراً لقى تعود لعهود متأخرة لا نعتقد أنها تثبت سكناً متأخراً في القصر ، بل هي على الراجح من نفايات المساكن المجاورة أو المتأخرة (٢) ، وقد عرضنا بعض نماذج منها (اللوحة الرابعة الأشكال ٢، ٣، ٤، ٥، ٦) .

عدنان البني نسيب صليبي

---

(١) راجع للمقارنة :

C. J. LAMM, Mittelaltaerliche Glaser, Bd. I, S. 101 - 103, Bd. II, Taflen 31 - 32.

(٢) مثال ذلك كسرة من مطرة من العهد المملوكي على بطنها قرص مخرّم مضاف يمثل حيواناً ، وقد وجدت نماذج مماثلة لهذه المطرات في قلعة حماة ولكن قرصها يمثل طائراً يحبو على طائر آخر أو يفترسه وهي قد تعود للقرن الرابع عشر .

راجع :

P. J. RIIS & V. POULSEN, Hama, Kobenhavn, 1957, P 260. Nos. 955 - 956.